البنيوية التكوينية
إعداد ميداني بن عمر

تعريفها

تعد البنيوية التكوينية أو التوليدية، فرع من فروع البنيوية، نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد والماركسيين، للتوفيق بين أطروحات البنيوية في صِيغتيتها الشكلانية وأُسس الفكر الماركسي أو الجدلي في تركيزه على التفسير المادي والواقعي للفكر والثقافة عموماً. ويعد لوسيان غولدمان باعثها في النقد البنيوي المعاصر.

رائدها

ولد لوسيان غولدمان عام 1913 ببوخارست الرومانية وتوفي عام 1970 بباريس ظل إلى وفاته مديرَ المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (1950-1970) وهو مُنظّر ماركسي مؤثر. قبل العام 1933 لم يكن غولدمان قد تعمق بعد في دراسة الأدب والفكر، إلا أن ذهابه إلى فيينا كان مفترق طرق، حيث اتجه فيها إلى الأدب والفلسفة بعدما تعرف على المفكر الماركسي ماكس إدلر، وعرف حينها الماركسية النمساوية ومدرسة فرانكفورت. في عام 1934 انتقل غولدمان إلى باريس وبدأ بتحضير رسالة الدكتوراه في جامعة السوربون، حيث اختص فيها بالاقتصاد السياسي. وفي باريس تشكلت أولى ركائز منهجه، الذي ستتبلور ملامحه فيما بعد وأبرزها كان الكلية والشمولية.

تأثر بجورج لوكاتش في ثوريته الماركسية ، وخاصة بمفهوم «النظرة المأساوية للعالم» عنده في كتابه «الأرواح والأشكال» الذي ألهمه لكتابة عمله النقدي «الإله الخفي 1955».والنظرة المأساوية للعالم يفسرها تعريفه للرواية بأنها : «قصة بحث عن قيم أصيلة في عالم منحط، وبطرق منحطة ، يقوم بها فرد منحط »، فكتب أيضا كتابه الشهير «من أجل سوسيولوجيا للرواية 1964». كما تأثر بمصطلحاته (الوعي الممكن)، و(التشيؤ)...الخ.

كما تأثر بمعلمه جان بياجيه الذي أنقذه من مطاردات النازيين وهو فار من سجنه في سويسرا ... واستلهم منه الفكر البنيوي التي حاول أن يوائم بينها وبين ماركسيته ، ويتجلى ذلك في كتابه «البنية الذهنية والخلق الثقافي الذي صدر بعد وفاته عام 1974».

كيف ظهرت؟

إذا كان المنهج الاجتماعي الوضعي يعقد ربطا آليا بين مضامين الأدب والمجتمع, باعتبار أن الأديب لا يعكس سوى بيئته ووسطه الاجتماعي, فإن البنيوية التكوينية تعقد تماثلا من نوع آخر ليس بين مضمون الأدب والمجتمع, بل بين الأشكال الأدبية وتطور المجتمع بطريقة غير آلية. ويتم هذا الترابط بواسطة التناظر أو التماثل بين البنى الجمالية أو الفنية والبنى الاجتماعية . ويمكن التمييز كذلك بين بنيوية تكوينية وظيفية يمثلها لوسيان غولدمان , وبنيوية شكلانية غير تكوينية يمثلها كل من جاكبسون وكلود لفي شتراوش ورولان بارت وگريماس وألتوسير وفوكو ولاكان .....

يثبت غولدمان أن العلاقة الجوهرية بين الحياة الاجتماعية والعمل الأدبي تتعلق بشكل مباشر بالبنيات الذهنية أي بالأيديولوجيا التي تقوم عليها الطبقات الاجتماعية والعالم المتخيل للمبدع، إذ أن البنيات الذهنية اجتماعية وليست فردية، وبالتالي تكون هذه البنيات الذهنية كامنة وتعمل بشكل لا إرادي وغير مباشر ولا تتعلق بالشعور واللاشعور بل تبقى وكأنها في مرحلة عمل غير مباشرة. بالمقابل فهو يرى أن وعي المجموعة الاجتماعية وعالم الإنتاج لا يكونان بالضرورة منسجمين. لذلك تتم دراسة البنيات من خلال البحث التكويني التوليدي وليس عن طريق دراسة حياة الكاتب أو التطرق إلى علم النفس لمعرفة الظواهر الشعورية له. وذلك انطلاقا من الفكر البنيوي التكويني القائل بالبحث الأعمق عن التاريخي والفردي لأنه يمثل جوهر المنهج وهو الدراسة المثلى للتاريخ. إذن فهي تسعى إلى تحقيق وحدة بين الشكل والمضمون. بين حكم القيمة وحكم الواقع، بين التفسير والفهم بين الغائية والحتمية.

كان غولدمان يرى أن الماركسية تظل في مأزق إن لم تجدد أنساقها لتتجاوزها... فنبذ النظرة التقليدية للماركسية كما نبذ عقم البنيوية أيضا . وخلُص إلى منهج نقدي يجمع بينهما و لقد انتشر هذا الطرح النقدي وأثبت نجاعته بين النقاد حتى أن رولان بارت وصفه : بالنقد الأكثر خصوبة وليونة والذي لا نستطيع تمثّله إلا عبر التاريخ الاجتماعي والسياسة . وفي الأصل أن الفكر الماركسي هو الأب الشرعي الضمني للبنيوية قبل أن تتحول البنيوية إلى نظرية نسقية موغلة في الانغلاق الشكلي ... مثلما أوغلت الماركسية في اهتمامها بالمضامين وهو ما دفع غولدمان الماركسي المعارض إلى تجاوزها .إذ صار يدرس حياة البنية في الجماعة. وليس حياة الجماعة فيها .

البنية الفوقية
الثقافة والأدب
البنية التحتية
الاقتصاد ووسائل الإنتاج المادية

النقد الاجتماعي

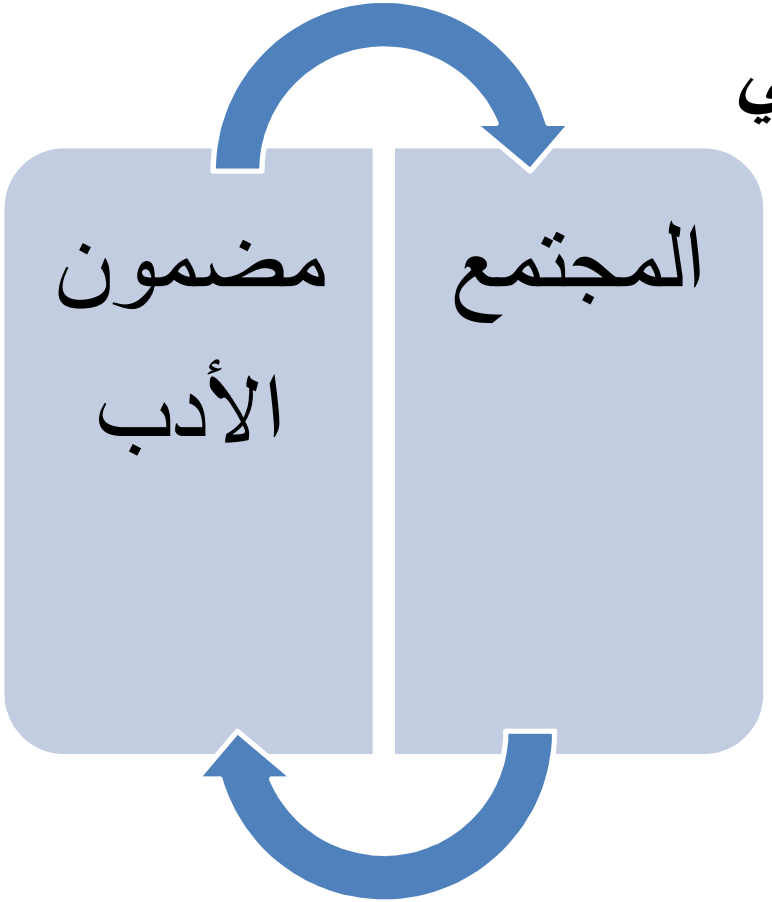

بطريقة مباشرة

البنيوية التكوينية

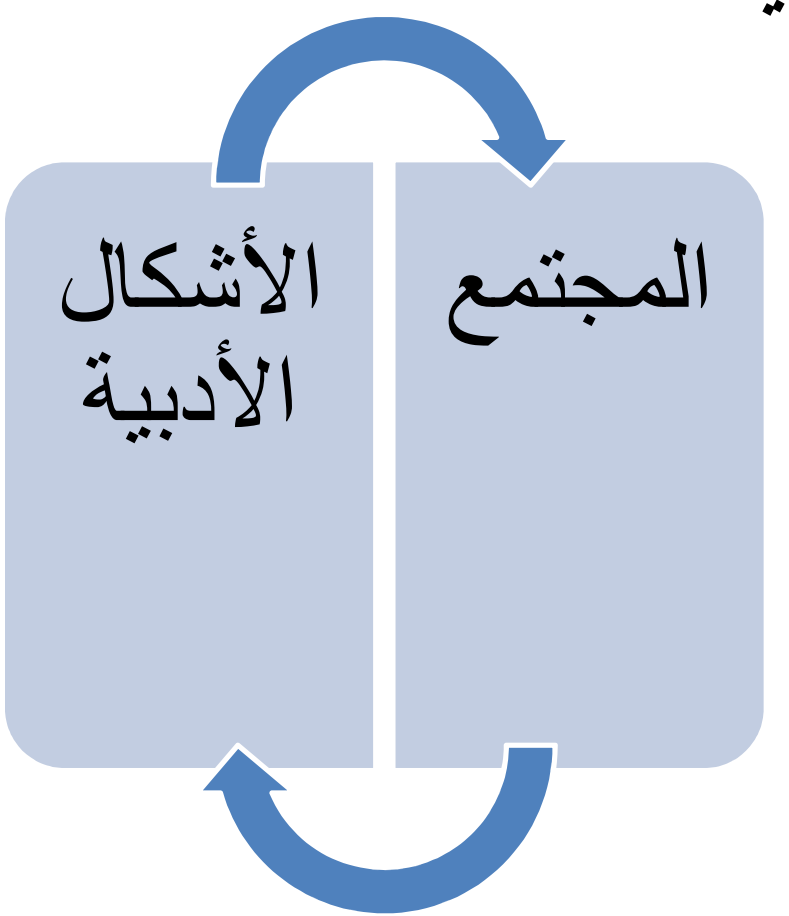

بطريقة غير مباشرة

يرى غولدمان أن الخصائص الجوهرية للسلوك البشري عامة، ومظاهر الإبداع الفني خاصة لا تتعدى هذه الخصائص :

- الاتجاه إلى التكيف مع الواقع المحيط بالإنسان، ومن هنا يكتسب السلوك معنى خاصا بالنسبة للبيئة.
- النزعة إلى التماسك في بنية تركيبية شاملة .
- خاصية النشاط «الديناميكي» والاتجاه إلى تعديل البنية التي يعتبر جزءا منها وتطويرا لها .

البنية الدالة ورؤية العالم

- يهتم غولدمان بدراسة بنية العمل الأدبي دراسة تكشف عن الدرجة التي يجسد بها هذا العمل بنية الفكر عند طبقة أو مجموعة اجتماعية ينتمي إليها مبدع العمل في تركيزه على بنية فكرية تتمثل في رؤية للعالم تتوسط ما بين الأساس الاجتماعي الطبقي الذي تصدر عنه والأنساق الأدبية والفنية والفكرية التي تحكمها هذه الرؤية وتولدها..
- أما البنية الدالة فيتبع غولدمان في تعريفه لها تعريف بياجيه إذ يقول : توجد بنية ما عندما تجتمع بعض العناصر في وحدة شاملة ، تتميز بخصائص محددة لمجموعها، بحيث تتوقف هذه العناصر –جزئيا أو كليا – على مميزات البنية الشاملة . وهي أبنية دالة أي لا يمكن فهمها أو تفسيرها إلا عبر البنيوية التكوينية وفق آليتي الفهم والتفسير . باحثا في ذلك عن الوحدة والتناغم الدال بين الداخل والخارج في بنية أي عمل أدبي. وهو ما اصطلح عليه بالشمولية تأثرا بلوكاتش. غير أنه يخالفه في مفهومه للعمل فالفنان لا ينقل الواقع بل يبدع كائنات حية وعالَما له بنية ما...فالعبقرية دائما (تقدمية)...لن ننطلق إذن من حياة الكاتب ولا من عمله فقط ...فكلا المنهجين ناقص في نظره... ويختلف غولدمان عن النقاد الماركسيين كونه درس أعمال أدباء يتحفظ الماركسيون منهم كبودلير ومالرو وباسكال وراسين وغيرهم .

الفهم والتفسير

في الحث عن النسق الكلي أو المقومات الأساسية التي تعطي العمل الأدبي وحدته وتماسكه، أو بنيته الدلالية، وفي سبيل الوصول إلى هذه البنية يشترط غولدمان الدراسة الداخلية للعمل من دون إضافة شيء من الخارج، ويسمي هذه المرحلة (عملية الفهم) ، وأهم ما يميز المنهج الغولدماني هو عدم وقوفه على الدراسة اللغوية للنص بل يتجاوزها إلى مرحلة ثالثة يكمن فيها ربط البنية الدلالية (التي كشفت من النص) من جهة ورؤى العالم وفق منظور الطبقات التي كشفت من الطبقة من جهة ثانية. ويطلق عليها غولدمان (عملية التفسير).

بعض مراجع العرض

- A Regarder : Lucien Goldmann : Pour une sociologie du roman, Paris, Gallimard, 1964.
- لوسيان غولدمان، الإله الخفي، تر: زبيدة القاضي، وزارة الثقافة السورية، دمشق،2010.
- جابر عصفور، نظريات معاصرة، مكتبة الأسرة، القاهرة ، ط1، 1998.
- صلاح فضل ، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، دار المعارف، مصر، ط2، 1980.